الثُّنَائِيَّةُ التَّكَامُلِيَّةُ فِيْ التَّحْلِيْلِ الأُسْلُوْبِيِّ
((الظَّاهرة والملمح الأسلوبيين))
(مقاربة مصطلحية)

م . د . علي عبد الحسن جاسم اجليهم
وزارة التربية/المديرية العامة للتربية في ميسان
07808038746

المدخل

تتأتى إشكالية البحث من ضرورة وضع فهم مناسب لمفهومين رئيسيين في عملية التحليل الأسلوبي، وهما الظاهرة الأسلوبية والملمح الأسلوبي، الذين يتعالقان مفهوماً وتطبيقاً في جلِّ الدَّراسات الأسلوبية النظرية والتطبيقية على حدٍ سواء، إذ جاء هذا البحث منطلقا من رؤية ذهنية مارست التنظير والتطبيق على وفق المناهج الأسلوبية، وهي رؤية تلتمس تحقيق مبتغى علمي من شأنه ضبط عملية التحليل النصي من جهة التطبيق، وربط هذا التطبيق برؤية الباحث لمفهوم الأسلوب، وهنا يتضافر الجانبان النظري والتطبيقي في تكوين هذه الرؤية التكاملية في التحليل والكشف عن مكونات الأسلوب في آنٍ واحد.

انقسم البحث على مبحثين، خصص الأول لبيان مفهوم الظاهرة الأسلوبية، في حين جاء الثاني لبيان مفهوم الملمح الأسلوبي ثم وضَّحنا الفرق بينهما متخذين من أحد نصوص الخطاب القرآني مثالا إجرائيا.

الكلمات المفتاحية:
الظاهرة(phenomenon)،**الظاهرة الأسلوبية** (stylistic phenomenon) ، **الملمح**(feature)، **الملمح الأسلوبي**(stylistic feature)، **النص**(text)، **الخطاب**(discourse).

Research summary

- The researcher found that one of the necessities of objective stylistic analysis is to identify two essential concepts, namely the stylistic phenomenon, and the stylistic feature. After researching a number of data, the researcher was able to formulate a conceptual framework for the stylistic phenomenon, which is represented in (that dominant sign regularity that is linked to a certain intention and reveals the nature of the originator, and leaves its impact on the recipient),while a number of pillars combined in defining a conceptual framework for the concept of stylistic insinuation, which means (that rare linguistic element that gives the text the character of excitement, distinction and uniqueness).
- It turns out that the process of stylistic analysis depends on these two concepts, which are the main pillars of it. Because they relate to the concept of style as a set of similarities and features that indicate the nature of the creator, and with this relationship we are facing a vision of clarity in the two processes of analysis (procedure) and the disclosure of the elements of style according to the stylistic approach.
- The Procedural text came briefly, however, it revealed to us the ability of the conceptual framework in which the study came to explain the elements of style according to the stylistic approach.

المبحث الأول

مفهوم الظاهرة الأسلوبية

يشكِّل مفهوم الظاهرة الأسلوبية مساحة كبيرة في التحليل الأسلوبي؛ لما له من أثر فاعل، بل أساسي في تحديد أطر العمل الأدبي محل البحث والدراسة، فكل الدراسات الأسلوبية تعتمد هذا المصطلح، ولا غنى لها عنه أبدا .

لكن اللافت للنظر أن هذا المفهوم يكاد يكون شموليا بحيث يغطي مساحة التحليل الأسلوبي بشكل فضفاض، إذ يشوبه الكثير من التساؤلات التي من شأن الإجابة عنها إعطاء هذا المفهوم بعده المعرفي عبر تحديد مفهومه الاصطلاحي في ضوء جملة من المعطيات المتضافرة، كالمعطى اللغوي والمقاربة المفهومية لمصطلح الظاهراتية، وهما معطيان يشكلان رافدا مهما يعضد فهم الباحثين الأسلوبيين في هذا الاتجاه؛ لذا سنبدأ التأصيل لهذا المفهوم بناءً على المعطيات الآتية:

أولا: الظاهرة لغة

يأتي الأس اللغوي لمفهوم (الظاهرة) من مادة (ظهر)، إذ جاء في معجم العين قوله: ((والظهر من الأرض، ما غلظ وارتفع000 والظهور بدوُّ الشيء الخفي00 والظاهرة كل أرض غليظة مشرفة كأنها على جبل))([1])0

وذكر ابن فارس أنَّ ((الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز، من ذلك ظهر الشيء يظهر ظهوراً فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرز))([2])0

ويتضح أن الدلالة اللغوية لمادة (ظهر) تدور حول العناصر الواضحة والبارزة في الأشياء بما يشكل ظهورا مميزا للعيان0

ثانيا: مقاربته لمصطلح الظاهراتية

أما ما ورد في المعجم الاصطلاحي، هو ما جاء تحت مسمى الظاهراتية أو الفينومينولوجيا وتعني الاهتمام بالكيفية التي ينجز(يظهر) بها العمل، ويفيد المحلل منها بما تلح عليه من مقصدية وحدس في الإنتاج، وهي بذلك ذات تأثير كبير في التأويل الأدبي([3])0

وفي ضوء ما تقدم يمكن الجمع بين الأس اللغوي لمادة (ظهر) وبين الدلالة الاصطلاحية لمصطلح(الظاهراتية) لنخرج بجملة من الدلالات:

الأولى: البروز والظهور للمتلقي0

الثانية: الإلحاح في مقصدية معينة0

الثالثة: أنها تمثل عناصر أكثر تأثيرا في جملة المكون اللغوي0

الرابعة: أثرها واضح في أغلب الأحايين للمتأمل0

الخامسة: يمكن إسباغ رؤية معينه عليها في بعض حيثياتها بما يدخلها ضمن نظرية التأويل0

وفي هدي ما تقدم يمكن القول إنَّ الظاهرة هي بروز مُكوِّن ما ضمن نتاج معين بما يشكل إلحاحا في مقصدية معينة من شأنه تشكُّل مقصد مؤثر أو إنشاء رؤية تأويلية في حيثية من حيثيات العمل الأدبي0

ثالثا: الظاهرة عند الأسلوبيين

تأتي الرؤى الأسلوبية جاعلة من مفهوم الظاهرة مستوعبا إجرائيا يتداخل مع كل مستويات الإجراء التطبيقي للتحليل الأسلوبي، وهو أمر لا يخلو من الخلط الواضح للمتأمل في هذا المجال، وهذا ما سيظهر في ضوء بعض المقولات التي وردت في المجال الإجرائي في جملة من الدراسات التطبيقية، التي طالعناها، والسبب في فهمنا يعود إلى أنَّ الخلط متأتٍ من أمور هي:

الأول: عدم وجود تفريق بين مقولتين أو مفهومين هما: الظاهرة الأسلوبية، والدراسة الأسلوبية0

الثاني: وجود تداولي يساوي بين مفهوم الظاهرة الأسلوبية وبين علامات أسلوبية فارقة .

الثالث: الاستعمال المتبادل بين المفهومين الأسلوبية والظاهرة، كأسلوبية الانزياح وظاهرة الانزياح .

من هنا كان لزاما التوصل إلى تحديد واضح لمفهوم الظاهرة الأسلوبية عبر توظيف جملة من المعطيات التي يشكل فيها المعطى الأسلوبي الإضاءة المعرفية الأهم في هذا التحديد؛ لذا سنعرض المقولات التي تسيدت التنظير الأسلوبي فضلا عن إجراءاته التطبيقية، إذ يمكن أن ندمج تلك المقولات تحت عنوان جوهري هو:

الانزياح والاختيار: يعد هذان المفهومان الأس في البحث الأسلوبي، وهذا ما لا شك فيه، فهما العلامة البارزة التي تشكل العنصر الفاعل في التمايز بين النصوص، ويرى ففونتانياي أن الظاهرة الأسلوبية تعود إلى عبقرية اللغة التي تسمح بالابتعاد عن المألوف من الاستعمال فتوجد اضطرابا يصبح انتظاما جديدا يحدث وقعا لذيذا([4])، وفي

هذا السياق نجد أن والاك وفاران يربطان بين مجموع المفارقات الملاحظة بين نظام التركيب اللغوي للنص الأدبي وغيره من الأنظمة، وهي مفارقات تضم انحرافات تؤدي الغاية الجمالية، وهذا الأمر يتساوق مع فهم ماروزو الذي يعد الظاهر الأسلوبية تتجلى في جملة من اختيارات الكاتب التي من شأنها أن تخرج العبارة عن حيادها إلى عبارة مميزة بنفسها([5])، وفي نفس السياق يرى الباحث (W.winter): ((إن كلَّ نوع من أنواع الأسلوب يتميز بأنموذج خاص من الانتقاءات المتواترة التي تنضوي تحت الأجزاء غير الإجبارية من اللغة))([6]).

وهنا لابدَّ من وقفة تجلي لنا الفارق بين الانزياح بوصفه ظاهرة أسلوبية فارقة في نص ما وبين الاختيار الذي يشكل ظاهرة أسلوبية ما، والفارق يعود في فهمنا إلى أن ظاهرة الاختيار تنشأ عن وعي وإدراك وقصد غالبا، هذا من ناحية، ومن جانب آخر الاختيار فيه من السعة بحيث يمكن أن تكون ظاهرة الانزياح جزءاً من هذا الاختيار، وهذه الجزئية هي التي في الأغلب تشكل الفارق الجوهري لأسلبة النص إذا ما قورن بغيره من النصوص التي تدخل معه في الجنس الأدبي أو التي تعاصر النص زمانيا ومكانيا؛ لذا قيل: ((يجب ملاحظة الفوارق الجوهرية بين الملامح الفريدة والملامح المشتركة في لغة النص، أي الخلط بين الملامح المميزة للعصر أو الطبقة الاجتماعية أو لمزاج الكاتب المتفرد وبين تلك التي تعد من ضرورات لغة نوع محدد من النصوص))([7])، وهنا بات من الوضوح بمكان أن نفرق بين الظاهرة الأسلوبية وبين ظاهرة أخرى هي أقل من الأولى وجودا، وأكثر التصاقاً بمفهوم آخر سميناه بالملمح، الذي يأتي الحديث عنه فيما بعد .

وما زلنا عند هذا المفهوم (الظاهرة الأسلوبية)، نجد أن الجانب التطبيقي يسود فيه مفهوم الظاهرة الأسلوبية عند تحليل النصوص، وأنقل من ذلك قول أحد الباحثين: ((ثم شرعت بدراسة أربع ظواهر أسلوبية، وزعت على أربعة فصول: الانزياح، والتوازي والتكرار، والتناص والمفارقة))([8])، وهنا يتضح أن الباحث استقرأ النص الأدبي ليتبين أن هناك جملة من الظواهر أخذ منها البارز أي أكثرها وجودا وأثرا في النص، ولو تأملنا هذه الظواهر الأربع لوجدنا أنها تندرج ضمن إطاري الانزياح والاختيار؛ لأن التوازي والتكرار والتناص والمفارقة تدخل بشكل طبيعي ضمن مفهوم الاختيار، والاختيار نفسه يمكن أن نعده انزياحا؛ لأن المبدع مال باتجاه معين نتيجة لعوامل معينة أثرت تجربته باختيارات أو انزياحات معينة.

وهذا يعني أنَّ الباحث محمد سليمان اعتمد البروز والوضوح المتأتي من تسيِّد هذه الظاهرة للنص، إذ يقول: ((وقد شرع الباحث بهذه الظواهر لما لها من وجود واضح في شعر عدوان ساعد النصوص في تقديم التجربة الشعرية، وتحقيق أكبر قدر من شعرية الخطاب للمتلقي))([9])، إذن بات البروز والوضوح يشكل المهيمن في وصف عناصر مهمة في النص بأنها ظواهر، هذا من ناحية، من ناحية أخرى نجد أن وسم تلك العناصر بأنها ظواهر متأتٍ من كونها تشكل انتظاما جديدا يتجاوز الأطر المعتادة والمألوفة في المستويات اللغوية التي لا يتجاوز تأثيرها البلاغ العادي .

لذلك نرى كيف اتكأت جملة من الدراسات الأسلوبية على اتجاهين هما: ((الاتجاه الأسلوبي البلاغي، والاتجاه الأسلوبي الإحصائي))([10])، وكلا الاتجاهين يتخذ من عنصر التكرار أساسا في استقصاء تلك الظواهر، وهو أمر يتناسب تماما مع مفهوم الظاهرة الذي نحن بصدد تقييده بجملة من التوصيفات التي تميزه عن مفهوم آخر غالبا ما يتداخل معه وهو الملمح الأسلوبي، إذ يتيح الاتجاه البلاغي إمكانية الكشف عن الانتظامات التي تشكل ظواهر مهيمنة في النص محل الدراسة، وفي الوقت نفسه يتسع الاتجاه الإحصائي لتحري الأثر المهيمن نفسه بشكل أوسع وأشمل مبتعدا عن التقيد بأنساق سابقة كالذي نراه في سابقه أي الاتجاه البلاغي، إذ يمتد الاتجاه الإحصائي ليشمل المهيمنات من الظواهر والإضافات الأخرى التي تشكل علامات فارقة في النص الأدبي0

ومن الدراسات التطبيقية التي اجتزأنا منها القول بأنَّ ((مفهوم الظاهرة الأسلوبية في سياق هذه الدراسة يقوم على مفهومين رئيسين من مفهومات عديدة، ترمي إلى تفسير الأسلوب أو الظواهر الأسلوبية في النصوص الأدبية وغير الأدبية، أولهما الاختيار أو الانتقاء، ويعني مفهوم الاختيار أو الانتقاء أن يقوم مؤلف النص باختيار سمات لغوية محددة من بين فائض كبير من الإمكانيات التعبيرية المتاحة، ويعمل على إنشائها وتنسيقها وتنظيمها من أجل التعبير عن مواقف معينة، ولا شك في أن مجموعة الاختيارات الخاصة بمؤلف معين هي التي تكون سمات أسلوبه التعبيري الذي يكون مختلفا عن الآخرين، وثانيهما يلفى لدى ميشال ريفاتير، الذي يذهب إلى تفسير الأسلوب انطلاقا من تأثيره الضاغط على حساسية القارئ واستجابته000))([11])، وهذه المقولة توضح كيف يفهم المحلل الأسلوبي الظاهرة الأسلوبية واصفا إياها بأنها (مجموعة الاختيارات) التي خضعت للتنسيق والتنظيم لأجل تحقيق الغاية التعبيرية التي من شأنها أن تؤدي وظيفتها الأسلوبية، فهو يفهم أن تلك الظاهرة(الاختيار) ناتجة عن وعي

بالإمكانات اللغوية التي تتيحها اللغة هذا أولا، وثانيا أن هذه الظاهرة تتألف من مجموعة الاختيارات، بمعنى أن هذه الظاهرة متأتية من اندراج جملة من القضايا الأسلوبية في مستويات متعددة، هنا يمكن أن تشتمل على ظاهرة الانزياح التي عدها متأتية مما تشكله بعض المفارقات التي تضغط على المتلقي، وهو بهذا لا يبتعد كثيرا عن النقطة الأولى التي تمثل الاختيار والانتقاء بوصفها الظاهرة الأوسع، التي يمكن أن تتضمن الانزياح الذي يترك في القارئ ردة فعل تمثل استجابة لمثير أسلوبي معين، وهو ما يلفى عند ريفاتير كما أشار الباحث أنفا0

في هدي ما سبق يمكن أن نوجز المعطيات السابقة؛ لأجل أن تتضح الأسس التي تشكل الركائز الجوهرية في إيجاد الفهم المناسب لمفهوم الظاهرة الأسلوبية، والمعطيات هي:

الأول: اللغوي، وقد تبين أنه يدور حول العناصر الواضحة والبارزة في الأشياء بما يشكل ظهورا مميزا للعيان0

الثاني: مقاربة مفهوم(الظاهرة) لمصطلح الظاهرتية، التي تعني الاهتمام بالكيفية التي ينجز(يظهر) بها العمل، ويفيد المحلل منها بما تلح عليه من مقصدية وحدس في الإنتاج، وهي بذلك ذات تأثير كبير في التأويل الأدبي0

وفي ضوء المعطيين المتقدمين يمكننا أن نضع فهما مدمجا لهما، فنقول: إنَّ الظاهرة هي بروز مُكوِّن ما ضمن نتاج معين بما يشكل إلحاحا في مقصدية معينة من شأنه تشكُّل مقصد مؤثر أو إنشاء رؤية تأويلية في حيثية من حيثيات العمل الأدبي0

الثالث : الأسلوبي، الذي يتمثل في بروز عنصر يشكل هيمنة في العمل الأدبي محل الدراسة، أحيانا هي هيمنة متأتية من تسيِّد تكرار هذا العنصر في مستوى لغوي معين، يستدعي من المتلقي تأمله لبيان حيثياته الجمالية، معللا سبب بروزه هذه الظاهرة، لذا نجد أن الاتجاه الإحصائي فاعلا في الإجراء الأسلوبي، وهو اتجاه موضوعي علمي لا غبار عليه0

لم يقتصر هذا المعطى على الفهم السابق، بل منح مفهوم الظاهرة صفتين هما:

الأولى: تماثلات تشكل انتظامات ممتدة مع النص، والثانية: تضادات في مستويات متعددة0

تشكّل المفهوم

في ضوء جملة المعطيات السابقة يمكن صياغة فهم، من شأنه تحديد مفهوم الظاهرة الأسلوبية؛ لتصبح معرفة بأنها (ذلك الانتظام العلاماتي المهيمن الذي يرتبط بمقصدية معينة ويفصح عن طبيعة المنشئ، ويترك أثره عند المتلقي)، وبهذا الفهم نكون قد وضعنا الحجر الأساس في إمكان تشخيص الأسلوب، الذي نرى أنه ((جملة التشاكلات والملامح الأسلوبية التي تظهر في البنية اللغوية وتشي بطبيعة المبدع))([12])؛ لذا فأن الأسلوب يتكون من تشاكلات تتمثل بمجموع الانتظامات(الظواهر الأسلوبية)، ومجموع الملامح كما تتضح في المعادلة الآتية:

انتظامات (ظواهر أسلوبية) + ملامح = تمظهرات الأسلوب العلاماتية

إذا فهمنا الظاهرة الأسلوبية بوصفها العلامة الأبرز في تكوين الأسلوب؛ لأنها مهيمن أساسي يمكن أن يتفرع إلى مجموعة من المهيمنات التي تتمظهر على تضاريس النص الممتد في كل المستويات اللغوية، غير أن الجزء الآخر الذي سميناه بالملمح الأسلوبي يحتاج إلى بيان شافٍ؛ لأجل تتمة البحث، وهذا ما نتناوله في المبحث الآتي .

المبحث الثاني

في مفهوم الملمح الأسلوبي

يشكل مفهوم (الملمح) الجزء الآخر، الذي يعطي التصور الوافي عن مفهوم الأسلوب، وكيفية تحديده، بوصف الأسلوب موضوعا للدراسة الأسلوبية، والبحث في هذه الجزئية يقتضي بيان المعطيات الآتية:

الأول: اللغوي

تطالعنا المعاجم بجملة من المعاني، إذ جاء في المحكم والمحيط الأعظم أن ((لَمَحَ إِلَيْهِ يَلْمَحُ لَمْحا، وألْمَحَ: اختلس النّظر. وَقَالَ بَعضهم: لَمَحَ نظر، وألمَحَه هُوَ. وَالْأول أصح. ولَمَحَ الْبَصَر، ولمَحَه ببصره000، ولمَحَ الْبَرْق يَلمَحُ لَمْحا ولَمحَانا، كَلمع. وبرق لامِحٌ ولَمُوحٌ ولَمَّاحٌ، قَالَ: فِي عارِضٍ كمُضِيءِ الصبْحِ لمَّاح، وَقيل: لَا يكون اللمْحُ إِلَّا من بعيد، ومَلامِحُ الْإِنْسَان: مَا بدا من محَاسِن وَجهه ومساوئه. وَقيل: هُوَ مَا يُلْمَحُ مِنْهُ: واحدتها لَمْحةٌ))([13])0

وورد في أساس البلاغة أنَّ((لمح البرق والنجم: لمع من بعيد، وبرقٌ لمّاحٌ، ورأيته لمحة البرق، ولمحته ببصري: اختلست النظر إليه، " وهو أسرع من لمح البصر " ومن لمحةٍ بالبصر، ولامحته ملامحة. وألمحت المرأة من وجهها: أمكنت من أن تلمح. قال ذو الرمة:

وألمحن لمحاً من خدود أسيلة ... رواء خلا ما إن تشفّ المعاطس

ومن المجاز: أبيض لمّاحٌ: يققٌ. " ولأرينّك لمحاً باصراً " أي أمراً واضحاً))([14])0

مما سبق يعنُّ لنا عددا من المعاني لمادة (لمح) هي:
1- ظهور أمر ما بشكل سريع0
2- توهج واختفاء في آنٍ واحد0
3- أمر بعيد المنال يلمح بالتأمل0
4- الذي يظهر من المحاسن والمساوء0
5- الصفات المميزة للأشياء0

الثاني : في المعجم المصطلحي

في حدود ما طالعنا من معاجم المصطلحات لم نجد فيها ما يخص هذا المفهوم سوى بيان المراد بالملحة أو الطرفة أو النادرة، وهذا من قبل المقاربة، فهي: ((القول البليغ النادر المثير للانتباه الذي يتميز بالجدة والطرفة وإظهار البراعة في التفكير، والقدرة على تسلية القارئ، أو السامع والترفيه عنه))([15])، وهذه الرؤية لا تخلو من الإشارة إلى بعض من سمات الملمح التي تكمن في:

1- الندرة
2-الإثارة
3-الجدة
4- ما يكشف قدرة المنشئ

وهذه الركائز الأربعة يمكن أن تشكل المهاد الذي يؤسس لمفهوم الملمح، ولا سيما إذا رفدناه بمقولات الأسلوبيين في المعطى الآتي0

الثالث: الملمح عند الأسلوبيين

لابدَّ من تأسيس جديد لهذا المفهوم، ينطلق من رؤية أسلوبية تأخذ بنظر الاعتبار جملة من الرؤى التي تضمنتها الأطر الأسلوبية عند أعلام الأسلوبية الحديثة ويمكن مقاربة تلك الرؤى في مرتكزات هي:

1- الإثارة

يعد بالي رائد الأسلوبية الحديثة؛ لذا لا يمكن أن نتجاوزه دون أن نأخذ من رؤاه ما يمكن أن نفيد منه في التأسيس لهذا المفهوم، إذ أولى بالي أهمية كبيرة للقيم التعبيرية الكامنة في الكلام، أو التي توجب الإثارة المتولدة منه، ولا سيما الكلام المنطوق، ويركز بالي على العلاقة بين المضمون الوجداني والتراكيب التي جاء عليها الكلام المنطوق([16])، وهنا يبدو أن بالي يركز على القيمة الوجدانية التي هي نتاج تركيبات كلامية تمنح التعبير الإثارة اللازمة، وهذه الإثارة هي مكمن الأسلوبية عند بالي، ولا شكَّ في أهمية عنصر الإثارة في الدرس الأسلوبي غير أنَّ حصرها بالجانب الوجداني من جهة، والمنطوق من الكلام يجعل من الدرس الأسلوبي محدودا لا يستوعب انفتاحه على قراءة النص الأدبي بشكل عام.

ويمكن أن نوظف مفهوم الإثارة عند بالي كواحد من الأسس التي نبني عليها مفهوم الملمح0

2- بصمة الفرادة

وجاءت الإشارة لهذا المفهوم عند بيرجيرو، فقد ذكره لفظ (بصمة الفرد)، في قوله: ((فهناك لغة للفرد، وهي مجموعة من البصمات، وذلك تبعا لتعريف سوسير، وهناك لغة لفيكتور هيجو كما يقال، أو لغة الكتابة أسطورة القرن))([17])، ويظهر أن بيروجيرو يعتقد بوجود بصمات خاصة بالأفراد، وهو أمر طبيعي تؤكده طبيعة اختلافات الأفراد في متبنياتهم الذهنية التي تظهر في بصمات فردية تنسب لفرد دون آخر غير أنَّ المهم هنا ما يتصل بمفهوم الملمح الذي يسعى الباحث إلى تحديد مفهومه، فقد جاءت رؤية بيروجيرو لتضع أساسا مهما يتمثل بوصفه للملمح على أنه بصمة الفرد، وهذا الفهم يعد من الأسس المهمة في تحديد المفهوم اعتمادا على إشارات لغوية تتصل بطبيعة المنشئ، هذه الإشارات تتصف بأنها نادرة وملتصقة بالفرد، وهذا واضح من نعتها بالبصمات الفردية .

ثالثا: الإضافة

لعل في هذا المعنى تتجلى لمسات المبدع، التي تمنح النص الأدبي أسلبته الخاصة، وبعده الأسلوبي، فقد عدَّها الأسلوبيون ضربا مهما يدلل على خصائص العمل الأدبي؛ لذا تجدهم يعرفون الأسلوب بأنه ((ضرب من الإضافة إلى الغلاف المحيط بالجوهر الفكري أو التعبير الموجود من قبل، ويتجلى في إضافة عناصر وجدانية، أو عرض مثير، أو وحدة بناء فني))([18])، وتكشف هذه المقولة عن جملة أمور تمثل مزايا وخصائص النص، وهي أمور تبرز كمثيرات تترك أثرها في المتلقي الذي يجد فيها منبهات أسلوبية مهمة، وهي مؤشرات تلتقي مع مفهوم السابق

(بصمات الفرد)، فهي ركائز لغوية جديدة، قد تكون انحرافات أو مدخلات معرفية تنم عن إضافة جديدة للمعجم المكون للنص محل الدراسة؛ لذا تعد الإضافة شكلا جديدا يمكن الاعتماد عليه في معرفة الأسلوب حتى قيل أن الأسلوب هو ((إضافة السمة الأسلوبية إلى هذا التعبير))[19]، وهنا تأتي الإضافة بوصفها العلامة الدالة على مكامن أسلبة النصوص، ولا شك في ذلك؛ لأن الإبداع إنما يتأتى من الخلق الجديد أو الإضافة الجديدة لما سبق من معارف أدبية منظمة .

وقد تأتي الإضافة من ((مبالغة ذات طبيعة تعبيرية وتأثيرية أو جمالية تضاف إلى المعلومة المنقولة بالتركيب اللغوي من دون تغيير المعنى))[20]، ولا يبتعد هذا المعنى عن مفهوم الإضافة السابق إلا في كونها إضافة ذات طبيعة تأثيرية وجمالية، وهذا المعنى يلتقي مع ركيزة الإثارة فضلا عن الصبغة الجمالية التي ينشدها المحلل الأسلوبي في تفكيكه للنص الأدبي .

أنَّ التأمل في المرتكزات الثلاث(الإثارة، الفرادة، الإضافة) يجد أنها تتسم بصفة كونها عناصر لغوية نادرة؛ بمعنى أن الجامع الأساس فيها هو عنصر الندرة.

تشكل المفهوم

في هدي المعطيات المتقدمة استطيع القول إن الملمح الأسلوبي هو (ذلك العنصر اللغوي النادر الذي يمنح النص صبغة الإثارة والتميز والفرادة)، وهذا يعني أن الملمح ينماز بكونه عنصرا نادرا، يشكل إثارة، أو إضافة مما يحدو بنا أن نعده بصمة الفرادة أو (كود الفرادة)، إذ جاء في معجم المصطلحات بأن الفرادة تمثل الكود بين اللغة والكلام، أو أنها جملة العادات اللسانية التي تنسب إلى فرد ما في زمن ما بحسب فهم برفاينرش، وقريب من هذا الفهم ينسب إلى بارت، الذي عدَّ الفرادة كود المبدع بحيث لا يوجد تشابه قوي بين فرادتين[21]0

بين الظاهرة والملمح الأسلوبيين

هناك فارق جوهري يعود إلى أن الظاهرة تنماز بالبروز، إذ تشكل انتظاما علاماتيا ممتدا مع النص، أي أنها متكررة بشكل واضح، وهي أيضا تقع ضمن التماثلات النصية التي تعود في الأغلب إلى عنصري الاختيار والانزياح، وهي بالنتيجة انزياحات متواترة في عموم النص المدروس0

أما الملمح فقد اتضح أنه عنصر يوصف بأنه نادر، ويشكل بصمة المبدع التي تميزه عن غيره .

ولكي يتضح الجانب النظري السابق، سنعمد إلى مثال قرآني، نبين فيه الظاهرة الأسلوبية، والملمح بحسب ما قدمنا من رؤية في هذا المجال .

النص الإجرائي

اخترنا نصا يتسم بالقصر، لكنه نص كريم يقع ضمن سياق الخطاب القرآني، وهذا النص هو سورة الإخلاص وهي:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص].

عندما نقرأ النص الكريم بوصفة وحدة نصية ضمن سياق الخطاب القرآني، سنجد أنه انماز أسلوبيا بكونه جملة واحدة تمثل إضاءة معرفية كبرى تدور جميع مفرداتها ضمن إطار معرفي واحد وهو التوحيد؛ لذا كان هذا الأصل الذي ترتبط به كل تراكيب النص، وهذا يمثل الظاهرة الأسلوبية الأولى، التي يمكن أن نطلق عليها (هيمنة دلالة التوحيد)، وهذه الظاهرة تقع ضمن دائرة المستوى الدلالي، بوصفه المستوى الأوسع، وقد تضافرت كل التركيبات الجملية في جعل معنى التوحيد المهيمن الأساس في هذا النص، وهذا التضافر ابتدأ في المستوى الصوتي، إذ وظف المبدع التجانس الصوتي عبر مرتكزات هي:

الأول: قصر التركيبات المؤلفة للنص، مما أعطى إيقاعا يوحي بحركة تبدأ منه وتنتهي إليه، لتكون دائرة المعنى واحدة تدور حول القطب الواحد (الله).

الثاني: وحدة الفاصلة في النص، وكيف منحت النص قيمة مضافة عبر صوت (الدال) الذي هو من أصوات القلقلة، إذ جاءت القلقة الكبرى متأتية من سكون صوت الدال في نهاية الفاصلة؛ لتتضافر قوة الصوت مع قيمة الدلالة الكبرى، وهي إشارة دلالية تلتمس حيثياتها في أدنى تأمل .

الثالث: كذلك جاء المستوى الصرفي عبر جميع مبانيه ليؤدي أثره الدلالي (التوحيد)، إذ تتضافر هذه البنى ضمن حقل دلالي واحد، فإن تكرار لفظ الجلالة (الله)، (أحد)، أو (هو)، (الصمد)، كل هذه المباني تمنح التواتر المنتظم للظاهرة الدلالية الأسية التي يدور حولها النص وتتضافر كما لاحظنا كل المستويات في تجليها وبروزها .

وهذا السياق كاف في تبيان التجانس والتناسق في المباني التي تشكل السياق القرآني، فالصيغ الصرفية جاءت متوافقة مع سياقها، لتشكل تعالقا نصيا ينتج شكلا من أشكال التجانس المورفولوجي عبر تواشج شبكة الألفاظ مع بعضها0

الظاهرة الثانية، ونجدها تتجلى في استهلال النص بفعل الأمر (قلْ)، الذي يشكل مدخلا من الأهمية بمكان في بناء السياقات النصية للخطاب القرآني، وهو ظاهرة أسلوبية تحمل دلالات مهمة من شأنها بيان طبيعة النظام القرآني وكيفية ولوج معالمه المعرفية الواسعة، التي تعتمد على بوابة المتلقي المتصف بصفات الكمال؛ لذا شكَّل حضور الفعل (قل)بـ (270) مرة، قيدا معرفيا يوجب على المتأملين في المنظومة القرآنية إدراك حقيقة مهمة، وهي أن إدراك المفاهيم والحقائق القرآنية الكبرى يحتاج معرفة المتلقي الذي هو من سنخ هذا الكتاب الإلهي، ولا شكَّ في هذا الأمر إذا ما تأملنا جملة من النصوص القرآنية التي تشكل الخطاب القرآني، التي منها قول الحق تعالى: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2] وقوله تعالى:(**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)** [الرعد:7]، وقوله تعالى: **(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ)** [آل عمران: 7] وفي ضوء هذه الآيات ندرك أن المفاهيم والحقائق الكبرى تحتاج متلقياً يتناسب معها فهما وإدراكا، وهذا المدرك تؤكده الظاهرة الأسلوبية الممتدة مع جملة واسعة من السياقات القرآنية؛ لأن استعمال فعل الأمر(قل)، يمنح صفة وساطة الفيض لهذا الخطاب، ولا سيما في تبيان الحقائق الكبرى فيه، وهذا التلقي الذي يمكنني أن أصفه بأنه تلقٍ خاص، أي فيه خصوصية متأتية مرة من كونه من سنخ ذلك الكتاب، أو أنه راسخ في العلم أو هو المتصف بكونه هاديا، إذ تتصل مقومات تلقيه بشكل من أشكال الإدراك المتعالي الذي لا يستطع التلقي الآخر مجاراته .

أما إذا ما تأملنا مفردات النص، سنجد أن مفردة (الصمد)، استعمال نادر في الخطاب القرآني، وهذا اللفظ مما ورد مرة واحد في سياق هذا النص، وكان سياق التلقي مفعما بتعدد الدلالات، إذ بلغت ثماني عشرة معنى([22])، وهذا الانفتاح الدلالي يمثل إثارة أو إضافة معرفية كبرى، تتأتى من استعمال اللفظ الواحد في عموم سياق الخطاب القرآني، أو النص قيد البحث، وهنا جاءت هذه المفردة لتمنحنا بعدين معرفيين هما:

الأول : التناسب بين المعطى الدلالي والاستعمال الواحد، فلما كان سياق النص يدور حول الحقيقة الواحد (الله)، حضر اللفظ(الصمد) باستعماله الوحيد هنا كمؤشر أسلوبي بارز يتماثل مع إرادة إثبات الوحدانية المطلقة للواحد الأحد0

الثاني : الانفتاح الدلالي، لهذا اللفظ، ولعل الجنبة اللغوية التي تتصل بأصل الاستعمال منحت مادة (صمد) انفتاحيا على مستوى من الفهم، المعنوي والمادي في آن واحد، فقد ورد في معجم مقاييس اللغة أن ((الصَّادُ وَالْمِيمُ وَالدَّالُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْقَصْدُ، وَالْآخَرُ الصَّلَابَةُ فِي الشَّيْءِ، فَالْأَوَّلُ: الصَّمْدُ: الْقَصْدُ. يُقَالُ: صَمَدْتُهُ صَمْدًا. وَفُلَانٌ مُصَمَّدٌ، إِذَا كَانَ سَيِّدًا يُقْصَدُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ. وَصَمَدٌ أَيْضًا. وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الصَّمَدُ ؛ لِأَنَّهُ يَصْمِدُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ بِالدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ))([23]).

هذان الأصلان، أعني أنه السيد المقصود إليه في جميع الأمور، والثاني وهو الصلابة في الشيء، هما اللذان جعلا هذا المبنى يشكل بؤرة النص، إذ التمس منه متلقو النص القرآني جملة المعاني الإضافية بالنظر للمعنى الأول(السيد المقصود إليه)، فقد ذكروا أنَّه الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ؛ كَوْنَهُ سَيِّدًا يرجع إِلَيْهِ فِي قَضَاءِ الْحَاجَاتِ، وهُوَ الْحَلِيمُ؛ كَوْنَ مقتضى السَيِّادة الْحِلْمَ وَالْكَرَمَ، وإلى هذا المعنى أسندت صفات الخلق والقدرة والعظمة والفرادة([24]).

أما المعاني السلبية بالنظر للمعنى الثاني (الصلابة في الشيء)، فقد جاءت المعاني الإضافية، فهو الغني نظرا لقوله تعالى: (هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الْحَدِيدِ: 24]، وهو القاهر لقوله: :(وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) [الْأَنْعَامِ: 18]، .... وَهُوَ (يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ)[الْأَنْعَامِ: 14]، وهو الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ: (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ) [الرَّحْمَنِ: 26] ... فهو المنزَّه عن كلِّ نقص وزيادة، وعن كل موارد التغيرات والتبدلات فضلا عن إحاطة الأمكنة والأزمنة والجهات ([25]).

وفي هدي ما تقدم يمكن بيان بعض الأبعاد المعرفية وهي:

الأول: إن السياق الأوسع للنص القرآني كان حاضرا في تهيئة الأصول والمنطلقات اللغوية التي تعد نقطة الانطلاق باتجاه التأسيس لنظام جديد، يعد نظاما كليا ومهيمنا ثقافيا جديدا، من شأنه صناعة مناخ معرفي جديد يمنح المتلقي أبعاداً معرفية جديدة غير منقطعة الأصول في مخزونه اللغوي الذهني، وهذا ما لمسناه في توظيف مفردة واحدة(الصمد).

الثاني: أن فهم النص القرآني يستند أساسا إلى الخطاب القرآني نفسه؛ لذا جاءت ردود متلقي النص لتكشف مدى التواشج المعرفي بين نصوص الخطاب القرآني، فكل دلالة تجد أنها مستندة لنص آخر اكتنزته ذاكرة المتلقي الذي كان من أساسيات التعبد عنده التزام التلاوة لنصوص الخطاب القرآني .

الثالث: إنَّ لفظا كـ(الصمد) يمنح هذا النص إثارة معرفية تجعله مصدرا لامتدادات معرفية متعددة تدور حول معنى واحد ضمَّ المعاني الإضافية والسلبية في آن واحد جدير أن يعد ملمحا أسلوبيا فاعلا في النص القرآني.

في هدي هذا المثال التطبيقي، يمكن القول إن التماثل أو الانتظام في عناصر معينة هو الذي يشكل الظاهرة الأسلوبية، هذا ما تبين في استعراض الباحث لظاهرتين أحداهما شكلت امتدادا في النص قيد البحث في المستوى الدلالي، والثانية جاءت بالنظر لكون النص قيد البحث جزءا من الخطاب القرآني، وكلا الظاهرتين تمثل حضورا بارزا فاعلا .

في حين اتضح مفهوم الملمح بالبحث في عنصر نادر وهو لفظ (الصمد)، وما شكله من إضافة وإثارة معرفية، حتى أضحى أسا أسلوبيا أبرز خصائصه، أنه العنصر اللغوي النادر الذي يمنح النص بعده الأسلوبي .

الخاتمة

أحمد الله حمدا، لا انقطاع له، وأثني عليه بما هو أهل له، فالحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة على سيد الخلق أجمعين محمد وعلى آله الطاهرين، وبعد؛

في ختام هذا البحث عنت لنا جملة من النتائج يمكن إيجازها كالآتي:

- وجد الباحث أن من ضرورات التحليل الأسلوبي الموضوعي تحديد مفهومين جوهريين، هما الظاهرة الأسلوبية، والملمح الأسلوبي، وبعد البحث في جملة من المعطيات، استطاع الباحث صياغة إطار مفهومي للظاهرة الأسلوبية فأصبحت تمثل في (ذلك الانتظام العلاماتي المهيمن الذي يرتبط بمقصدية معينة ويفصح عن طبيعة المنشئ، ويترك أثره عند المتلقي)، في حين تضافرت جملة من المرتكزات في تحديد إطار مفهومي لمفهوم الملمح الأسلوبي، فأصبح يعني (ذلك العنصر اللغوي النادر الذي يمنح النص صبغة الإثارة والتميز والفرادة).
- تبين أن عملية التحليل الأسلوبي تعتمد على هذين المفهومين الذين يعدان المرتكزين الجوهريين فيه؛ لأنهما يتعالقان مع مفهوم الأسلوب بوصفه جملة التشاكلات والملامح التي تشي بطبيعة المبدع، وبهذا التعالق نكون أمام رؤية من الوضوح بمكان في عمليتي التحليل(الإجراء) والكشف عن مقومات الأسلوب بحسب المنهج الأسلوبي.
- حضر النص الإجرائي موجزا، غير أنه كشف لنا قدرة الإطار المفهومي الذي جاءت به الدراسة على بيان عناصر الأسلوب على وفق المنهج الأسلوبي.

وفي ختام هذا البحث نسأل الله التوفيق، إنه نعم المجيب...

هوامش البحث

[1])- كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (تـــــ: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال: 4/ 37، 38 .

[2])- مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (تـــــ:395هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م، : 3/ 471 .

[3])- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة،(عرض وتقديم وترجمة)، د0 سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط(1)1985م: 144 .

[4]) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، د0 عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب ط (3): 101، 102 ، الأسلوبية، مفاهيمها تجلياتها، د . موسى ربابعة، جامعة الكويت، ط(1) 2003م: 29 .

[5]) ينظر: : الأسلوبية والأسلوب، د0 عبدالسلام المسدي : 103 .

[6]) نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندرس، ترجمة، د0خالد محمود جمعة، دار الفكر بدمشق، ط(1)،2003م: 124 0

[7]) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، د0 صلاح فضل، دار الشروق، ط(1)، القاهرة1998م : 194 .

[8]) ظواهر أسلوبية في شعر ممدوح عدوان، د. محمد سلمان (عيال سلمان) دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ط(2)، عمان - الأردن : 4 .

[9]) المصدر نفسه : 31 .
[10]) المصدر نفسه: 32 .
[11]) ظواهر أسلوبية في شعر ابن دريد د0 أمين يوسف عودة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق/مج-86/ج/3 : 799 -800 .
[12])- نظرية الأسلوبية السياقية، ((المبادئ وحدود الإجراء)) د0. علي آل اجليهم، الدار البابلية للدراسات والبحوث العلمية، ط(1)، 2023م: 28 .
[13])- المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (تـ 458هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،ط(1)، 1421 هـ - 2000 م(مادة: لمح): 3/ 3760 0
[14])- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (تـــ: 538هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط(1)، 1419 هـ - 1998 م :2/ 179 0
[15])- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، لبنان، بيروت، ط(2) ، 1984م :283 0
[16])- ينظر: الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط(1)، 2010م : 166 .
[17])- أسلوبية بيرو جيرو ترجمة د0 منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري،ط(2)،1994م : 74 0
[18])- نحو نظرية لسانية أسلوبية، فيلي سندرس 33 .
[19])- الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط(3)، 1992م : 28 0، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، د0 منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط(1)،2002م : 46 0
[20])- نحو نظرية لسانية : 34 .
[21])- ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش : 160 .
[22])- ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط(3)- 1420 هـ: 32/ 361، 362 .
[23])- مقاييس اللغة : 3/ 309 .
[24])- مفاتح الغيب، للرازي: 361/32 .
[25])- ينظر: مفاتح الغيب : 32/ 362، 363 .

فهرست المصادر والمراجع

- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (تـــ: 538هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/1، 1419 هـ - 1998 م .
- الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط(3)، 1992م .
- أسلوبية بيرو جيرو ترجمة د0 منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري،ط(2)،1994م .
- الأسلوبية، مفاهيمها تجلياتها، د . موسى ربابعة، جامعة الكويت، ط(1) 2003م .
- الأسلوبية والأسلوب، د0 عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب ط (3) .
- الأسلوبية وتحليل الخطاب ، د0 منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط(1)،2002م.
- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط(1)، 2010م .
- ظواهر أسلوبية في شعر ابن دريد د0 أمين يوسف عودة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق/ مج-86/ج/3 .
- ظواهر أسلوبية في شعر ممدوح عدوان، د. محمد سلمان (عيال سلمان) دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ط (2)، عمان - الأردن .
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، د0 صلاح فضل، دار الشروق، ط(1)، القاهرة1998م .
- كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال0
- المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (تـ 458هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،ط(1)، 1421 هـ - 2000 م .
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة،(عرض وتقديم وترجمة)، د0 سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط(1)1985م 0

- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، لبنان، بيروت، ط(2)، 1984م .
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/3 - 1420 هـ .
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) ،المحقق: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
- نحو نظرية لسانية، فيلي ساندرس، ترجمة د0 خالد محمود جمعة، دار الفكر دمشق، ط(1) 2003م.
- نظرية الأسلوبية السياقية، ((المبادئ وحدود الإجراء)) د0. علي آل اجليهم، الدار البابلية للدراسات والبحوث العلمية، ط(1)، 2023م .